ابن . . .

الأستاذ لبيب السعيد

كان ذلك فى مطالع شبابى غب تخرجى فى مدرسة التجارة ، حين آثر أبى أن ينشئ لى متجراً ، وكان هو وجدى وقتئذ يرعيان تجارتى الناشئة ، ويقضيان من الساعات ، يوجهان العمال ، ويشاركان فى استقبال الحرفاء ، وينيران لى فى كل مناسبة طريق الجديدة . وكنت يومئذ شديد الرغبة فى النجاح ، فكنت أستدفع الضجر ، وأطامن من اعتزازى بآرائى ، وأتقبل توجيهات أبى وجدى راجياً أن أتنور على هديهما مقصدى

وكان أبى لا ينفك يوصينى بألا أبيع بالنسيئة أبداً ، ويقول لى : يا بنى ! خير لك أن تبقى بضاعتك أمام عينك من أن تعطيها الناس ثم تظل فى انتظار ثمنها يدفع أو لا يدفع . وكنت أعرف ما جرته النسيئة على أبى من متاعب ، فبدا لى أن آخذ وصاته مبدأ أساسياً لتجرى لا أنحرف عنه

ووقفت عصر يوم بجانب مكتبى النصف دائرى ، وأنا جذلان بنظام محلى ووفرة محتوياته وبشائر النجاح بادية فى إقبال الحرفاء ورضاهم ... وقفت أقبض أثمان المبيعات ، وأوجه للعمال أمراً بعد أمر ، وأنطلق بين لحظة وأخرى مع مرسلات الأمانى . وفيما أنا كذلك ، إذ أقبل علىّ شيخ حطمه الشلل يتحامل على عصا غليظة ، وعليه ملابس بلدية موشكة على البلى وإن تكن فاخرة الصنف ، وفى صحبته طفل فى نحو الخامسة يلبس جلباباً قصيراً خفيفاً ، ويحمل وجهه سمات حزن لا يكون فى أمثاله

وقال الشيخ فى لهجة عزيزة ومنكسرة معاً : « أعطنى يا بنى عشر أقات دقيقاً » ، فهتفت حالا بالعامل القريب : « زن لحضرته ما يطلب وخذ منه ثلاثين قرشاً » ؛ وأجاب الرجل وهو يتكلف الابتسام : « بل زن المطلوب ويكتب علىّ ثمنه » ، فما أسرع ما اندفعت قائلا فى تعميم قاطع : « مستحيل هنا » ؛ وابتسم الرجل ابتسامة واهنة ، وقال وهو يتلفت كأنه يتحرى ألا يسمعه أحد : « بل ليس مستحيلا ، ولا تمنع عمك أحمد الناجى ما يطلب ، لا ضامتك الأيام » ، ولكنى نظرت إليه نظرة لا رفق فيها ، وقلت كأنى أستعجله مغادرة المتجر : « مستحيل جداً يا عمى ، وبالله دعنا فى شغلنا »

ونظر الشيخ إلىّ ثم إلى طفله نظرات المغضب المغلوب المتحسر فكدت لفرط ما تأثرت بهذه النظرات أستجيب لطلبته لولا أن ذكرت أن الأمر أمر مبدأ ، وإنى إن بذرت اليوم للنسيئة حبة فسأبذر غيرها غداً ، وإذن فسأجنى الثمرة المرة التى جناها أبى ، والتى حذرنى منها تحذيرا . واستدار الرجل فى صعوبة وهو يتكئ ببدنه كله على عصاه ، وجر رجليه جراً إلى الطريق ومعه طفله الذى كان يحكى هزاله وحقارة ملبسه حكاية البؤس مؤثرة وجيعة

ونزل جدى فى هذا الوقت من عربته يصلح وضع مطرفه ، ويلقى السلام على جيران المحل ، وما بصر بالشيخ حتى وقف يصافحه بحرارة مبادلا إياه تحيات أيدتهما لى كشقيقين على صفاء ومحبة ، وأسرعت فقدمت لجدى كرسياً ، ولكنه قدمه إلى الشيخ فى اهتمام وهو يقول : « أيها الأخ ! إنى سائل عنك ، قلبى معك » ونادى صبياً يعمل فى المتجر أن يحضر قهوة للشيخ . وإذ رأيت عواطف جدى نحو الشيخ تولانى خجل شديد لما فعلت معه ولكن تولانى أيضاً خوف من أن أورط فى هذه المشى الأ...

وتحدث جدى مع الشيخ لحظات فى صوت خفيض ، فما لبث جدى أن صاح بى فى لهجة ناهرة : « أهكذا يا محمد تفعل مع الشيخ ؟ ! زن له عشرين أقة » وصدعت بالأمر كارهاً !

أمر جدى أحد العمال بنقل الدقيق إلى بيت الشيخ الذى علا البشر صفحته ، والذى قال وهو قائم يخطو إلى الشارع : « أكتب عندك ستين قرشاً على أحمد الناجى » ؛ وانطلق متحاملا على نفسه وأنا أتبعه بنظراتى غضبان أسفاً لكسر مبدئى التجارى ، وأهمس لعامل قريب معرضاً بجدى : « شيوخ طيبون ، يصدقون كل شىء ، ويدخل الاحتيال عليهم »

وقعد جدى يردد أدعية بالستر الجميل له ولذريته ، ثم قال مسمعاً إياى والأسف ظاهر فى وجهه : « إنها الدنيا ! الشيخ أحمد الناجى تعوزه أقات من الدقيق ! الشيخ الناجى الذى كان يتصدق بالقمح أرادب ! قضاء الله ! ضاعت أمواله الضخمة ، وأصابه الكبر والشلل ، وتخطف الموت امرأته وهو أحوج ما يكون إليها ، وله كما رأيت طفل ضعيف تعوزه التربية ! »

وجعل جدى يحرك قبضة عصاه فى شبه حركة عصبية ، وهو يبدئ ويعيد فى الحديث عن صديقه الشيخ مظهراً غضبه منى إذ لم

أسارع إلى تنفيس ضائقته ، ولم أقدم إليه من الاحترام ما هو كفاء منزلته وعزلته

وجاءنى أبى مساء ، فحدثته بالذى كان ، وكأنما كنت أريد أن أقول له : أنظر ما ذا فعل أبوك ! فكان يضحك للهجتى ، ولكن وجهه كان ينم عن تأثره لمأساة الشيخ الناجى ، ومضى يحكيها لى مفصلة وهو يحوقل ويسترجع ، على أنه ما لبث أن قالها بينة صريحة : « ومع ذلك فلا تعط أحداً بعدها شيئاً بالنسيئة »

ومرت أيام ، فجاء الشيخ الناجى بوجه فيه الأسى ، وكعهدى به اتخذ من عصاه رجلا بعد رجل ، وتكلف لى ابتسامة جاءت خجلى متكشة وقال : لا تضق بى يا بنى ، إن لى إليك رجاء يسيراً ... أتأذن بقرش حلاوة لهذا الصغير ؟ (مشيراً إلى ولده).

وعض الحزن على قلبى للطفل الشاخص ببصره إلى الحلاوة ، واستحييت لكرامة جدى ، فأسرعت بنفسى وقدمت إلى الطفل قطعة من الحلاوة ، ثم التفت إلى الشيخ أسأله مجاملا : ثم ماذا ؟ فأجاب : « لا شىء ، جعلك الله من السعداء »

وجلس على كرسى وأمارات التعب الساغب عليه ، واحتضن ولده فى حنان وأسف وهو يقول له بنبرة حزينة : يابنى المسكين ! تأكل مما يقترض أبوك ؟ !

وسمعت عاملين يتهامسان بما ينقض عوز الشيخ ، وبأنه يقول ما يقول ليسرق عطفى . ولينقى عن كل شك ، فهمت نفسى بتصديقهما لولا أن ذكرت تفاصيل ما قصه على أبى وجدى

ومضى الشيخ يجر جسمه وطفله . وانقضت أشهر وأنا لا أراه حتى كان يوم وردت فيه جنازة إلى المسجد القريب من المتجر ليصلى عليها ، ووقف المشيعون ينتظرونها عن كثب من المحل ؛ وقال قائل : يرحم الله الشيخ أحمد الناجى ! وقال آخر : ياما أحرز! فقال ثالث : وياما أضاع !

وسعى أمامى الركب الذى لا يعود صاحبه ، وأنا أتمتم فى غير اكتراث كبير : « الله يرحمه ... ويعوض على ما فى ذمته ! »

وغبرت سبع سنين ورد فيها جدى حياض المنون ، ولم يفسح بعده لأبى فى رحاب العمر ، بل عاجله الأجل الصارم ؛ وتحلبت على أموالنا أشداق الطامعين من الأقارب والأباعد ، حتى ليخيل إلىّ أن لو كنا نؤكل ما عفوا ولا شبعوا .

وكنت رشيد إخوتى فألقيت على كتفى أثقال الأسرة . وكان أفدح هذه الأثقال أن أسترد ما لأبى وأقضى ما عليه . لقد كان أبى يكره أن يستدين أو يدين ؛ ولكن التجارة أركبته رغمه هذا المركب

واتصلت بالمدينين فهالنى الأمر . هنا مُعدِمٌ يقول : كان يودى ... ؛ وهذا منكر يقول : أمامك الحاكم ... ؛ وهنا محتال كتب أملاكه لزوجه فراراً من العدل . فأما الموسر ذو التقوى فيريد أن يدفع المائة الجنيه عشرين . فأما الدائنون ، فقد حسروا لنا اللثام عن بطش وكيد . فإنذاراتهم ما تنفد وعنتهم ما ينتهى .

ودخلت المحاكم فكم أموال أنا فى حاجة إليها أخذتها منى ، وكم قال لى المحامون : هات .

وأدركنى اليأس من طهارة الذمم ، وروعنى خراب الضمائر ، وثقلت علىّ وطأة الحياة ، وأصبحت لا أتبين فى غمرات المظالم طريقاً

وقعدت يوماً فى متجرى أرسل فكرى فى ظلمات الأحداث المحدقة ، وأنى متوجعاً على المحيط الذى أنا فيه خلوه من رجل يستوحى الضمير ويقدر الشرف ، وأدير عينى فى مكان أبى وجدى فلا أراهما ، وغشينى هم أذهلنى عما حولى فترة ، فما نبهنى غير صوت غلام فى نحو الثانية عشرة يلبس جلباباً قذراً وطاقية رخيصة ويحمل علبة صفيح صدئة يقول لى وهو يمد يده إلى بالعلبة : ياعمى محمد ! خذ حقك واحداً وستين قرشاً . قلت مستغرباً : أى حق يابنى ؟ قال : حقك ... ثمن الدقيق الذى اشتراه أبى أحمد الناجى ، وثمن الحلاوة الطحينية التى أعطيتنيها .

وغمرتنى الدهشة ، فقد طوى النسيان صاحبه منذ سنين على احمد الناجى ، ولكنى سرعان ما ذكرته . ذكرت لهجته ، وذكرت فقره ، وذكرت جدى وأبى وما قالا فى شأنه وما فعلا ، وذكرت الدقيق والحلاوة ، وذكرت قوله لابنه وهو يحتضنه فى حنان وأسف : يا بنى المسكين ... تأكل مما يقترض أبوك .

ذكرت هذا كله ، وتفكرت فيما أرى من الغلام ، فهزنى هذا التصرف الكبير منه ، وكأنى أمام حادثة من خيال الشعراء ، وقلت جاداً : خل هذا المبلغ لك يا بنى ؛ فأجاب فى تمرد وقد اربد وجهه : أتريد أن يدخل أبى النار ؟ ... لقد قال لى وهو فى أشد التعب قبل أن تصرخ عمتى بأنه مات بوقت قصير ، قال لى : يا علىّ ! إذا أراد الله لك أن تشب وتجتاز السنين وتكسب شيئاً فلا تنس أن تسدد ثمن الدقيق والحلاوة . وما دمت كبرت واشتغلت فى مصنع السجاد بخمسة قروش فى اليوم فلا بد أن أقضى دين أبى ليدخل الجنة ...

وأشرق وجه الغلام وهو يضع النقود على مكتبى فى عزم وإصرار ، وابتسم ثغره ثم مضى فى قوة شامخة . **لبيب السعيد**